على هامش مشاكلنا الثقافية

الكم والكيف

في نهضتنا التعليمية

للأستاذ رضوان إبراهيم مصطفى

ما كان عجباً أن تخطو مصر خطواتها الواسعة في سبيل الثقافة بعد أن دفعتها تيارات الحياة الدولية ، ومركزها من هذه الحياة . . وبعد هذه الرجفة العالمية التي أخذت جوانب المعمورة ، وأحدثت شيئاً — غير هين ولا يسير — من التحول في تاريخ البشرية . وصحت مصر على الهول ، تتلمس الطريق نحو حياة متكاملة متسامية ، تلائم بها بين غابرها في الحضارة ، ومكانتها في الغد المنتظر .

وتلفتت تستجمع قواها للنضال ، فألفتها مفككة الأوصال ، مبعثرة الأعضاء ، ورأت الغفوة الطويلة التي منيت بها ، قد أشاعت الفتور والتراخي في أعصابها ، ورأت موكب الزمن قد سرى بالحياة والناس بعيداً بعيداً ، بينما تخلفت عن الركب ، ونامت على هدهدة الذل والاستكانة حتى فاتها القطار ، وهيهات أن تدركه !!

*

.. ما كان عجباً — إذن — أن تشعر بهذه الهوة التي تفصلها عن الحياة المتقدمة إلى أمام ، فتسارع إلى إعداد نفسها لهذه الحياة ، واستكمال النقص ، واتخاذ الأهبة .

وكان الجهل أبرز الثغرات التي تعتور بناءها ، وتوشك أن تصدعه ، فتوثبت لسدها ، وحشدت لها السواعد والكواهل وأعلنتها على الجهل حرباً عواناً لا تعرف المهادنة .

واستجابت الدولة لدواعي الحياة ، فنزلت إلى الميدان ، تحمل الراية وتقود الكتائب لهجوم قوي مركز .

استعدت الدولة ، وبارك الشعب استعدادها ، فما أن أعدت الحكومة مشروعات تعميم التعليم ، وإتاحة الفرصة لكل فرد في الأمة ان يصيب منه — على قدر ما هيأته له مواهبه وكفايته واستعداده — نصيباً يتيح له حياة حرة كريمة ...

ما أن اعلنت هذه المشروعات حتى صمت رنين التصفيق ، ودوي الهتاف يتردد بحياة الديمقراطية !!

لكن المسألة — فيما يبدو — وقفت بالشعب عند حد الاعجاب والاستحسان، فما أن جاء دور التنفيذ ، وتلفتنا نتساءل : إلى أي مدى تطيق إمكانيات الدولة هذه الطفرة ؟ وإلى أي حد سيشارك الشعب في التنفيذ ؟ وما الموقف الايجابي الذي سيقفه الاغنياء ؟ وما دورهم في تسليح هذه النهضة المباركة ؟ ...

.. ما أن وصلنا إلى هذا الحد ، حتى رأينا تناقضاً عجيباً .. رأينا الدولة تندفع بحماسها المتدفق، والشعب يكف عن التصفيق والهتاف ، ثم يرتد على أعقابه ، ويخلفها وحيدة في الميدان ، وكلما تقالت الدولة في حماسها ، كلما أمعن أثرياء الشعب في الفرار من الميدان ، وكأنما كان دورهم فيها دور المتفرج وحسب .وكان آخر الانباء أن تكفلت الدولة بنفقات التعليم العام وجعلته حقاً مشاعاً لكل أفراد الأمة ، جاعلة هدفها ألا يقل المستوى الثقافي لأي فرد في الدولة عن هذا القدر من التعليم الذي يستطيع في ضوئه أن يرى الحياة كما هي .

كما كان آخر الخطوات المتخاذلة من الحلفاء الاعزاء ، الانسحاب من المعركة ، والانكماش عن المعونة ، والاحجام حتى عن الهتاف والتصفيق .ولقد أدار الاغنياء ظهورهم حينما دعتهم الدولة أن يؤازروها في تنقيف أبنائهم ، ورفع مستوى أمتهم ، ونحن لا ندري لماذا وإن كان سلوكهم من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى تعليل أو تدليل . لقد استجابوا للدعوة حينما كانت الاستجابة كلاماً يلقى بلا تبعة ، وآمنوا بها حينما لمحوا من خلالها النفع الشخصي ، وتراءت لهم في ثناياها أشباح الغنى والثروة ، أو مظاهر العظمة الشخصية الكاذبة .

فلما عنتهم الدولة بدعوتها ، ورأوا أن ثمن البطولة غال ، وضريبة العظمة فادحة — تكلوا عنها ، وتراجعوا عن نصرتها ، ووقفوا منها موقف أبي خالد الذي قال فيه شاعره : —

يحب المديح أبو خالد ويهرب من صلة المادح

. . . . . .

ومهما يكن من رهق وإعنات ، فقد صارت الدولة في طريقها غير مترددة ، ولا متخاذلة ،

نعممت التعليم ، وقررت المجانية ، ويومئذ أشفق المشفقون . . المشفقون على موارد الدولة إذ سارت إلى نهاية الشوط ، والمشفقون على كرامتها إذ هي تراجعت عن وعودها التي ارتبطت بها أمام العالم .

لكنها لم تتراجع ، بل أصرت على أن تواصل التجربة إلى النهاية ، فكان أن أرهقت ميزانيتها ، وما بلغت بغيتها مما تريد . لا ننكر أنها قد استطاعت – بكثير من الضغط العنيف – أن تقتصب لكل طالب مكاناً ما ، في مدرسة ما . . ! ولكن مشكلة التعليم لا تحل بإيجاد مكان ما ، في مدرسة ما ، وإنما هي أبعد وأخطر من ذلك . ولكن ماذا تستطيع الدولة أن تصنع ، وهي لا تملك غير ذلك ؟ على ذلك عند أولياء هذه الأمة ! !

ليس هذا مقام الواعظ الذي يحث الناس أن يتبرعوا لتعليم أبنائهم ، فلا يضنوا عليهم بشعاع من النور يلقونه على طريقهم الشاق المظلم الطويل في حياة المستقبل ، وأن يسوغوا من أموالهم الزائلة دعائم خالدة ثابتة في صروح الوطن والإنسانية . . وليس مقام المستجدي ، الذي يناشد الناس عطفهم على النهضة التعليمية الوليدة .

ولكنه مقام النذير الذي يفتح العيون والآذان على الخطر المحدق ويبشر بسوء النتائج منذ البداية ، ما دامت المقدمات التي لديه تؤكد سوء المصير .

*

هل الأمة شاعرة بحاجتها إلى التعليم ، جادة في تثقيف أفرادها ، إن كانت مؤمنة بذلك فلا مناص من المشاركة في هذه النهضة مشاركة فعالة تدفعها إلى الأمام ، ولا بد من تقديم العون الفعال الكفيل بنجاحها – لا بد من الأموال الكافية والأماكن المعدة اللائقة وعلى الحكومة أن تحصر جهودها في تقديم الفنيين ، ورسم الخطط وإعداد المناهج ، ودعم النهضة وتوجيهها ، وتثبيت أركانها . . وإن كانت الأخرى – وأعيذها بالله من شرها – وكانت الأمة غير مؤمنة بالتعليم ، وإنما أرادته جعجعة بلا طحن وألفاظاً ذات رنين أجوف وخيل إليها أن الدولة قادرة أن تمس أبناء الأمة لمسة سحرية ، فإذا هم – في طرفة عين – متعلمون ، وضغطت ضغطها على حكومة تستدعيها نهضة البلاد أن تحمي بجميع المرافق العامة على السواء ، ومالية ترهقها المطالب الحيوية الفعالة في مستقبل حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية . . إن أبت الأمة إلا هذا ، فلا مفر للحكومة أن تخادع الناس وتخادع نفسها ، فتحشر التلاميذ في المدارس حشراً ، ثم تخرج الى الأمة باهجة بنشوة النصر ، لا لأنها استطاعت أن تحل مشكلة التعليم ، بل لأنها سخرت من عقول الناس وصرفتهم عن

حل المشكلة ، ثم ترضى عن نفسها : ويرضى الناس عنها ، لأنها أوجدت لأبنائهم أماكن في المدارس ، ويرضى عنها التلاميذ ، لأنها وضعتهم في مدارس لا يتعلمون فيها ، بل يقضون جزءاً من يومهم في العبث والتسلية ، ويرضى عنها البرلمان ، لأن ضغط الوساطات والشفاعات من أولياء الأمور على النواب والشيوخ قد تخلخل أو تلاشى .

*

وإلا فماذا تصنع المدرسة التي تستوعب عشرة أمثال ما تحتمل مبانيها ومرافقها وأدواتها ؟

وماذا يصنع المدرس لخمسين أو ستين تلميذاً يتكدسون في حجرة الدراسة بلا نظام ولا ترتيب ؟

وكيف تستطيع إدارة المدرسة أن تشرف على هذا الحشد الحاشد نفسياً ، واجتماعياً وخلقياً ، وصحياً وثقافياً .. على ما فيها من نقص في العدد ، والوسائل ، والكفاية في غالب الأحيان ؟

وماذا تصنع الوزارة إزاء ضغط الشعب وإرادته ، وقد ارتبطت في سياستها برغائب الشعب وإرادته ، حينما اصطنعت الديمقراطية أساساً للحكم وارتضت تكاليفها ؟

وما هي النتيجة المرتقبة بعد كل هذا ؟

جواب ذلك كله عند القادرين من أبناء الأمة . والوزارة إن فعلت ذلك فهي مضطرة أن تفعل ، مضطرة أن تلائم بين حاجة البلاد إلى الثقافة ، وحاجة الثقافة إلى الوسائل ، ومالاءة الأمة — مصدر السلطات — في فكرتها الخاطئة ، التي تحتم تقديم الثقافة لأبناء الأمة بلا وسائل ، ولا ممدات .

بيد أن الوزارة التي ترضي لنفسها أن تستجيب لرغبات الشعب على حساب مستقبل الوطن ، وتسكت صيحاته ، وتحمل مشاكله على هذا النحو — مقصرة في ذات نفسها ، ومقصرة في حق هذا الشعب أبلغ التقصير .

والشعب الذي يطالب الوزارة أن تحشر أبناءه في المدارس فحسب .. الشعب الذي يريد أن يأخذ ولا يعطي ، ويرى أنه أفلح في انتزاع حقه من الحكومة بهذا الأسلوب ، وأنه غلبها حين استبد بها فأرغمها على قبول أبنائه في المدارس بالجملة .. ذلك الشعب يقامر بمستقبل الوطن ، فإن تلك صفقة خاسرة ، غبن فيها نفسه أولاً ، والوطن ثانياً ،

والضحية فيها – أولاً وأخيراً – هم الأبناء الأبرياء ، وهو مستقبل الوطن المنكود الذي ينتظر جيلاً مثقفاً ثقافة حقة يبني عليها مجداً ثابت الأساس ، ويتخذ منها نوراً هادياً يمشي به في الناس .

*

من واجب وزارة المعارف أن تبصر الناس بالخطر المحدق الذي ينتظرهم ، وقد أعذرت حينما استنهضت همم الناس فلم تنهض ، ثم استدرت عطفهم فلم يدر ثم أنذرتهم فلم يسمعوا . ومن واجب القادرين الغيورين على مستقبل الوطن أن يحوطوا النهضة ويباركوها قبل أن تذوى وتتبدد ، وتصبح خبراً مؤسفاً يستدر الدموع أو يلهب الحسرة .

*

إننا من المؤمنين بالطفرة المتوثبة في وسائل الإصلاح ، مهما يحف بها من أخطار وأهوال ومخاوف !! .. وماذا يفعل المتخلف المعلاق إلا أن يقفز القفزات السريعة العاجلة حتى يدرك ركب الحياة ؟!! ونحن كارهون أبلغ الكره أن نتراجع عن خطوة خطوناها ولو في طريق وعر ، أو نجلو من شبر من أرض كسبناها ولو في مملكة الجن .

لكن الوضع القائم لدينا أننا شدنا صرحاً ضخماً على أرض غير متماسكة ، فأما ثبتنا الأساس ودعمنا الأركان وإلا تداعى فتهاوى ، فعاد أنقاضاً تحت أسماعنا وأبصارنا ، ويومئذ نصلى نار الحسرة على ما فرطنا في حقوق وطننا ، وعلى ما بدا منا من حمق وتخاذل .

وأنا أستعيذ بالله أن تبلغ بنا الغفلة والحمق أن أعيد قصة الأحمق الذي أطلق الذئب الأسير :

يحكى أن ذئباً سكن أحد بساتين وزارة الزراعة ، وكان يغير على فلاحيه ليلاً فيفجعهم في أغنامهم وطيورهم وشاء الله أن يعر الذئب ليلة ، فيمد رأسه في جرة الماء ليشرب ، وينحشر رأسه في عنق الجرة ، ويظفر به الفلاحون في الصباح على هذا الوضع المضحك ، فيفرحون ، ويتشاورون في ابتكار حيلة طريفة للقضاء على هذا العدو ، تشبع فيهم رغبة الانتقام ، بالتشهير والتنكيل ، ثم التمثيل وبينما العقول تكد في ابتكار الطريقة ، انبرى أحمقهم ، فأهوى بعصاه على رأس الذئب ، فأصابت الجرة فحطمتها ، وفر الذئب ناجياً بسلام

والجهل عدونا الألد ، وقد ظفرنا به أيها الناس ، فلا ندعه ينفلت من قبضتنا الحديدية ، حتى لا ينبعث في كياننا هادماً فتاكاً مدمراً وحسبه منا الملايين العديدة

من ضحاياه ، وحسبنا منه ما أرهق من كواهلنا ، وما أرهق من حضارتنا ، وما أذل من أعناقنا .

٥

بقيت مشكلة الكم ، وهي مشكلة يضج منها المعلمون والنظار والمفتشون والمراقبون ويشكو منها الفنيون والاداريون ويشكو منها كل مشتغل بالتعليم وكل مهتم بشئونه وكل مشفق عليه . يتضح ذلك من التقارير التي تسجل النقائص والمعايب التي تشوب حركة التعليم ، وتكاد تودي بجدواه من جراء تكدس الطلبة في الفصول ، وتكدس الخمسين في جداول المدرسين وعدم كفاية المقاعد والأبنية والأفنية والأدوات والمعامل والأساتذة والمشرفين .

وما زالت الحال تزداد سوءاً على سوء ، وما زالت التقارير تترى منذرة بالخطر محذرة من سوء المصير الذي ينحط إليه التعليم نتيجة لذلك الضغط المتزايد ، وقد اتفقت الآراء على أن ذلك مهدد لكيان النهضة التعليمية ، معوق لها عن بلوغ الهدف مصيّرها الى وهم من الأوهام ، وستار جامد من الرسميات يخفي وراءه العيوب والمآسي .

٥

وما زال المسئولون يرفعون هذه التقارير وتلك الشكاوى يوماً بعد يوم ولكن إلى من يرفعونها ؟ إلى وزير المعارف ؟ إنه هو الآخر يشكو سوء الحال ، ويشفق على مستوى التعليم أن ينزل إلى درك أحط ، ويسجل أرقاماً جديدة في الانحدار .

ولكن الذي لم يشك من هذا الموضع هم أولياء أمور الطلبة ، لا لأنهم مطمئنون إلى كل هذا ، بل لأنهم يجهلون كل هذا كما يجهلون نتائجه ، ولو اطلع أولياء الامور على ما يعانيه التلميذ ، وما يكابده المعلم وما تشقى به الادارة لآثروا أن يضعوا أنفسهم وأبناءهم ومعلميهم من هذه المهمة الشاقة العسيرة القليلة الجدوى ، ولكنهم لن يفعلوا ، لأن المسألة في نظرهم شيء خير من لا شيء ، ووجود أبنائهم داخل المدارس بلا تعليم ، خير من بقائهم خارج المدرسة لما يستتبعه من تبعات مادية وأدبية .

إن سياسة إلقاء الوزر على الحكومات ، وتحميلها كل تبعات الحياة ، لم تعد سياسة صالحة لهذا الزمان ولا لذاك المكان ولكننا ما زلنا نصطنع هذه السياسة التي أضرت بنا أبلغ الضرر ، فأولياء الأمور يحسبون أن واجبهم ينتهي عند ما يقذفون بأبنائهم إلى أبواب المدارس ولا يعلمون أن ذلك بداية المتاعب والمشقات المشتركة بينهم وبين

المدرسة .. بداية التعاون على خلق الجيل الكامل الذي سينقذ الوطن مما تورط فيه من مشكلات،سببها الجهل الذي تخلف بنا قروناً عن قافلة الحضارة التي سرقت زمامها بين يدينا

إن المسألة أخطر من كل هذا . ليست طوباً يدبره أولياء الأمور مع وزارة المعارف ولا هو خدعة ترشو بها الوزارة هذه الأصوات المرتفعة ، لا ! ولا هو لافتات توضع على بناء تشير إلى أن هنا مدرسة ، ولا فصول تزاد في المدارس القديمة على حساب مرافقها وملاعبها وأفنيتها ، ولا مقاعد تحشر في الفصول أو تلصق بالجدران ، ولا أعداد تتضخم على حساب النظار والمعلمين والمشرفين والمعامل .. إن هـذا هو السرطان الهدام في كيان التعليم ،والمعوق من الثقافة .

والنتيجـة ؟ . النتيجه المؤكدة أن هذه الأرقام التي تتضخم وتمتد على طول الخط ، تعود فتنكمش وتتضاءل عند ظهور نتائج الامتحانات — على فرض صلاحيتها مقياساً للثقافة — والنتيجـة المنتظرة أن ترتفع قبل الامتحان أصوات خافتة تطالب بتخفيف المناهج،وبعده أصوات عالية تطالب الحكومة بتحسين النتائج ، كما تمهدت بفتح المدارس ، واستيعاب الصالح وغير الصالح من أبناء الأمة ، ويومها تلقى التهم إلى المسئولين ، ويلقى المسئولون التهمة — بدورهم — إلى المدارس ، وإداراتها ومعلميها .

ويتصب السخط والعنات على رءوس المعلمين ، ويرمون بأشنع الاتهامات ، ويلجأ أولياء الأمور إلى أبغض الحلال يومئذ ، وهو الدروس الخاصة ، وتروج هـذه السوق التي أفسدت الطلبة والمعلمين وأولياء الأمور معاً ، وأوجدت من الحقد بين هذه الطوائف ما بين مصر وإسرائيل والعياذ بالله مرة أخرى ، ثم ينتهي الأمر بأبغض الحلال والحرام معاً ، وهو محاولات الطلبة أن ينجحوا بأي طريق ولو على أسنة الرماح ، وتسجل التقريرات الرسمية حالات وحالات من الغش أو محاولاته أو الشروع فيه .

وتسري هـذه التيارات المدمرة بين الشباب المائع الذي يريد أن يأخذ الحياة بقوة السواعد فيما لا تجدي فيه القوة ، وبالعبث واللهو فيما يستوجب الجد والبذل والكفاح .

ثم ماذا ؟ ثم تتحول هـذه المهزلة إلى مؤامرة محبوكة الأطراف ، الضحية فيها هو الوطن المنكود بشبابه ، لأن هؤلاء يخرجون إلى واقع الحياة الوطنية بأسلحة زائفة ، يهزلون بمسائله الكبرى ، ويلعبون بمصائره ، ويهزأون بقيمه ، فيضربون بأهدابه عرض الطريق ، ويعبثون بمقدساته ، ويخونون أماناته ، وينقضون مواثيقه .

وما الفساد والرشوة والاختلاس والإهمال والفوضى والجرائم المتفشية في أخطر

وأقدس السمات الوطنية — إلاّ نسل عاق لهذه التربة المتيطة .

وما ظنك بأستاذ مقدر له ، بل مفروض عليه أن يتقي طلابه ويخالطهم ، ويبصرهم بالمثل العليا ، ويربيهم تربية مثالية ، بالاضافة إلى تثقيف عقولهم ، مع ما يتطلبه ذلك من دراسة نفسياتهم ، وعلاج مشكلاتهم ، وتقويم الشواذ منهم ، ليجعلهم مواطنين صالحين ...ما ظنك به وقد يمضي العام كله فلا يكاد يعرف أسماء طلابه ولا سماتهم ، ولا عاداتهم ؛ إذا حياه أحدهم في الطريق ، فكر وقدر وأجهد فكره سائلاً : أين قابلت هذا قبل اليوم؟ وله العذر كل العذر ، ما دامت ذاكرته تضيق عن حصر المئات من هؤلاء الطلاب وينسيه أولهم آخرهم .

٥

لا فكاك لنا من هذا الخطر إلاّ بأن نكون واقعيين ، نواجه الحقائق ولا نتعامى عنها ، ونؤمن بما آمن به كل إنسان ؛ وهو أن الأساس الذي ندفنه في الأرض ونهيل عليه التراب هو الدعامة التي يقوم عليها البناء شامخاً متطاولاً ، وبدونه يصبح البناء وهماً من الاوهام والاقتصاد حصاة من الحصيات ، أو البخل بقرش واحد على هذا الأساس قد يكون معناه خسارة محققة في القروش وآلافها ، وفي الحصيات وأحجارها .

ليفتح سادتنا عيونهم وخزائنهم ، وليعلموا أن معالم السيادة قد تغيرت وحال حالها ، فما عادت تمويع الشعب ، أو تركه يعيش في الظلام أو سوقه سوق القطيع ، إنما سيادتهم الحقة مستمدة من سيادته ، وسيادته تعتمد على عقلية مثقفة تغذي انسانيته وتمكن لها .

وخير لهؤلاء السادة أن يعتمدوا على انسانية هذا الشعب بدل أن يعتمدوا على القوة البهيمية المسخرة لتهديد الحياة الناعمة الوادعة لهم . فانه ليوشك أن تجمح هذه البهيمية فلا تبقي ولا تذر .

وخير لهؤلاء المترفين أن يؤدوا «ضريبة الفكر» مختارين حتى ينشأ الجيل الذي يفكر لهم في استمرار هذا الترف وهذا النعيم في عصر الأثير والذرة بأساليب الذرة والأثير .

•

أيها السادة.. لقد حكمتكم المادة أجيالاً وأجيالاً فأفسدتكم وأفسدت بكم الحياة ، فهدوا لحكم الفكر والثقافة ، ثم قارنوا واحكموا : أي الفريقين خير مقاماً وأسعد مآلاً ؟!!